الفصل الرابع

التعقيد فى التصنع

أرانى فى الثلاثة من سجونى ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى ... وكون النفس فى الجسم الخبيث
(أبو العلاء المعرى)

١

أبو العلاء : نشأته وحياته وثقافته

رأينا الشعر عند مهيار يصبح ضرباً من التلفيق الخالص ، وكأنما جمد الشعر العربى وأصبح من الصعب أن يتحول إلى طرائف جديدة إلا ما رأينا عند المتنبى من تصنُّعه لصيغ الثقافات المختلفة وما يَنْطوى هذا التصنع من تعقيد . ونحن لا نمضى بعد المتنبى إلى النصف الثانى من القرن الرابع ثم القرن الخامس حتى نجد شاعراً شآميًّا يبلغ بهذا التعقيد غايته ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعروف باسم المعرى نسبة إلى « مَعَرَّة النعمان » وهى بلدة بين حلب وحماة ، وكان يُكْنَى أبا العلاء ، وذكر ذلك فى شعره إذ يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ... ولكنَّ الصحيح أبو النزُولِ

وقد وُلد أبو العلاء سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ولم يبلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علّة الجدَرى التى ذهب فيها بصره . وأشار إلى ذلك فى إحدى رسائله إلى داعى الدُّعاة ، إذ يقول : « وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الإبصار كليل ، وقُضى علىّ وأنا ابن أربع ؛ لا أفرِّق بين البازل والرُّبَع »[1] وكان يقول : « لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنى ألبست فى الجُدَرِىّ ثوباً مصبوغاً بالعُصْفُر ، لا أعقل غير ذلك »[2] .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة مرجليوث) ١/١٩٨ والربع : الفصيل ، والبازل : البعير فى تاسع سنيه .

(٢) بغية الوعاة للسيوطى (طبع مطبعة السعادة) ص ١٣٦ .

وقد خرج أبو العلاء من بيت علم وشعر وقضاء ، فآباؤه كانوا يتولون قضاء المعرَّة ، وتحدث عنهم ياقوت فى ترجمته له حديثاً مستفيضاً ، ذكر لهم فيه طرفاً من أشعارهم . وكان لهذا الميراث العلمى أثره فى تربية المعرى ، إذ جعله يميل للبحث والدرس ، وأيضاً فإن فَقْدَ بصره حدد موقفه،وجعله يطلب العلم ويُشْغَفُ به،وبدأ أبو العلاء بهذا الدرس والتحصيل فى المعرة ، إذ تتلمذ على أبيه ومن فى بلدته من تلامذة ابن خالويه . يقول القفطى : « ولما كبر أبو العلاء ووصل إلى سِنِّ الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده كبنى كوثر ومن يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقيَّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك، فرحل إلى طرابلس الشام وكانت بها خزائن كتب وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ونزل دير الفاروس ؛ وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به،فعلق بخاطره ما حصل به الانحلال وضاق عَطَنُه عن كتمان ما تحمَّله من ذلك حتى فاه به فى أول عمره وأودعه أشعاراً له »[1] .

وقد يكون القفطى ألّف بخبر لقاء أبى العلاء لراهب دير الفاروس دون تثبُّت ، تعليلا لأبيات وضعت على لسانه، وليست فى اللزوميات ولا سقط الزند تجرى على هذه الصورة :

فى اللاذقية فتنةٌ ما بين أحْمَدَ والمسيحْ
هذا بناقوسٍ يدقّ وذا بمئذنةٍ يصيحْ
كلٌّ يُعَزِّزُ دينَهُ يا ليت شعرى ما الصحيحْ

ويظهر من اللزوميات أن أبا العلاء كما درس العلوم اللغوية والشرعية درس المسيحية واليهودية فى أثناء تطوافه بالشام وأدياره . ولما بلغ الثلاثين سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر فلم يفطر فى السنة والشهر إلا فى العيدين[2] . وفى

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء(طبع دار الكتب) ص ٣٠ .
(٢) الحضارة الإسلامية ٢/١١٠ .

سن السادسة والثلاثين رحل إلى بغداد ؛ ولقى علماءها من أمثال الرَّبَعى والواجكا والسُّكَّرىّ والمرتضى[1] ، وقد لقيه الأول والأخير لقاءً سيئاً ، وفارقها وهو يقول :

رحلتُ فلا دنيـا ولا دينَ نِلْتُهُ   وما أوْبَتى إلا السَّفَاهَةُ والخُرْقُ

ولما عاد إلى المعرة التزم ثلاثة أشياء : « نبذة كنبذة فتيق النجوم وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة[2] من القوب وثباتاً فى البلد إن حال أهله من خوف الروم »[3] . وسمّى نفسه (رهين المحبسين) يعنى حَبْس نفسه فى المنزل ، وحبس بصره عن الرؤية[4] . ومكث فى هذين المحبسين نحو خمسين عاماً ألَّف خلالها تلك الكتب الكثيرة التى رواها له ياقوت فى معجمه ، وهى تدل على أنه كان واسع الثقافات سعة شديدة ، فهو يعرف الديانات والمعتقدات المختلفة كما يعرف الفلسفة والتنجيم والتاريخ والتصوف . وما يُطوى فى ذلك من ثقافات يونانية وفارسية وهندية ، وعُنى عناية خاصة بالثقافة اللغوية فألف فى النحو والعروض ، وتصنع للغريب فى جميع آثاره . وليس من المبالغة أن نزعم أنه كان إماماً ممتازاً من أئمة اللغة فليس هناك شاذة لغوية إلا وهو يعرفها ويسلكها فيما يكتب من نثر أو نظم ، وكان السابقون يلاحظون مهارته فى هذا الجانب ، فالصفدى يعدد من رُزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء فى الاطلاع على اللغة . ويقول التبريزى : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى » وكانوا يقرنونه إلى ابن سيده اللغوى المعروف . ويقولون : « كان بالمشرق لغوى وبالمغرب لغوى فى عصر واحد لم يكن لهما ثالث وهما أبو العلاء وابن سيده »[5] . وحقًّا أن أبا العلاء كان مثقفاً ثقافة لغوية واسعة ، وكان يضيف إليها هذا الخليط المضطرب من ثقافاته الكثيرة وخاصة ما اتصل بالثقافة الفنية من الشعر إذ كان يُعْنَى عناية شديدة بجمع الأفكار والصور

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥١٥ .

(٢) القائبة : الفرخ . القوب : البيض .

(٣) رسائل أبى العلاء (طبع مرجليوث) ص ٣٤ .

(٤) معجم الأدباء ١ / ١٧٠ .

(٥) انظر فى هذه النصوص كتاب (أبو العلاء وما إليه للراجكوتى) .

القديمة وحشدها فى أشعاره وكتاباته على نحو ما نرى فى الفصول والغايات واللزوميات، وكأنه كان يؤلف شعره للمثقفين خاصة فهو يجمع لهم فيه كل مايعرفونه من ضروب الثقافات وألوان المعرفة، وخاصة المعرفة الفنية وما يُطْوَى فيها من صور غريبة ولفظ غير مألوف حتى يستولى على أفئدتهم بهذه الطرائف النادرة التى كانت تُعَدُّ بدعاً جديداً فى هذه العصور، والتى كان الناس والنقاد يقيسون بها مهارة الشاعر وإبداعه.

٢

ذكاء أبى العلاء وحفظه

كان أبو العلاء ذكيًّا ذكاءً شديداً سريع الخاطر دقيق الحس حتى ليَرْوى المصيصى الشاعر أنه كان يلعب بالشطرنج والنرد[١]!! . وروى الرواة أن أبا محمد الخفاجى الحلبى دخل عليه وسلَّم ولم يكن يعرفه، فردّ عليه السلام وقال: هذا رجل طُوال، ثم سأله عن صناعته فقال: أقرأ القرآن، فقال: اقرأْ علىّ شيئاً منه فقرأ عليه عَشْراً، فقال له: أنت أبو محمد الخفاجى الحلبى؟ فقال نعم، فسُئل عن ذلك، فقال: أما طوله فعرفته بالسلام، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب، فإننى سمعت بحديثه[٢]. وذكر القِفْطى أنه كان له سرداب إذا أراد الأكل نزل إليه وأكل مستتراً، ثم يقول: إنه نزل إليه يوماً وأكل شيئاً من رُبٍّ أو دِبْس[٣] ونقط على صدره منه يسير وهولا يشعر به، فلما جلس للإقراء لمحه بعض الطلبة فقال: يا سيدى أكلت دبساً فأسرع بيده إلى صدره ومسحه وقال نعم، لعن الله النَّهم، فاستُحْسن منه سرعة فهمه بما على صدره، وأنه الذى أُشعر به[٤]. وليس من شك فى أن هذا كله يدل على أن أبا العلاء كان مرهف الحس إرهافاً شديداً، وهو إلى

---

(١) تتمة اليتيمة للثعالبى ص ٤.

(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٥.

(٣) الرب: عصارة بعض الثمار. والدبس: عسل التمر أو عسل النحل.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٧.

ذلك كان سريع الحفظ أيضاً سرعة شديدة . روى ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار أنه لما دخل بغداد أرادوا امتحانه فأحضروا دستور الخراج الذى فى الديوان وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة ، وهو يسمع إلى أن فرغوا ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه[١] . ويروى القفطى أنه كان يحفظ ما يمر بسمعه « وأن رجلاً من اليمن وقع إليه كتاب فى اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه فكان يحمله معه ويحجّ ، فإذا اجتمع بمن فيه أدب أراه إياه وسأله عن اسمه واسم مصنِّفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره ، واتفق أنْ وجد من يعلم حال أبى العلاء فدلّه عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ووصل إلى المعرة واجتمع بأبى العلاء وعرّفه ما حاله ، وأحضر الكتاب وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئاً ، فقرأ عليه ، فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ومصنِّفه فلان ، ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل ، فنقل عنه النقص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة ، وانفصل إلى اليمن فأخبر الأدباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو ديوان الأدب للفارابىّ اللغوى ، وهو مضبوط على أوزان الأفعال[٢] » .

كان أبو العلاء قوى الحافظة — على ما يظهر — قوة شديدة ، وكان لا يُقْرَأ عليه كتاب إلا حفظ منه أطرافاً حتى ليروى الرواة أنه لما ذهب إلى بغداد طلب أن تُعْرَض عليه الكتب التى فى خزائنها فكان كلما قُرِىء عليه شىء حفظه ، وهم يروون أنه كان يحفظ المحكم والمخصَّص وأنه أملاهما من صدره[٣] ! ! . ولا تقف القصص بحفظ أبى العلاء عند نصوص اللغة العربية وكتبها ، بل إنها لتمتد فتزعم أنه كان يحفظ ما يسمعه بين رجلين بالفارسية أو بالأذربية[٤] .

وربما كان كثير من هذه القصص مبالغاً فيه ولكنها مع ذلك تدل على أن الرجل اشتهر فى عصره بحدة الذكاء وسرعة الحفظ . يقول ابن العديم : « كان أبو العلاء

---

(١) تعريف القدماء ص ٢٢٦ .
(٢) تعريف القدماء ص ٣٣ .
(٣) النور السافر للعيدروسى (طبع بغداد) ص ٤١٢ .
(٤) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ١٣ ، ٢٢٥ .

على غاية من الذكاء والحفظ ، وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة فى العلم ؟ فقال : ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته[١] » .

٣

اللزوميات وتشاؤم أبى العلاء

بدأ أبو العلاء حياته الفنية فى الشعر بتقليد المتنبى إذ كان يتعصب له تعصباً شديداً[٢] . وسقط الزند هو خيرُ ما يفسر هذا الطور من تقليده إذ نراه ينظم على طريقة المتنبى السابقة ، فهو يعتدُّ بالغريب والشاذ فى التراكيب ، كما يعتد بالتصنع لألفاظ الثقافات المختلفة والتغنى بالفيافى والحكم والأمثال والفخر بنفسه وذم الدهر والشكوى منه على نحو ما رأينا عند المتنبى ، إذ كان يردد جميع النغم الذى سمعناه عنده . وكان لا يضيف إلى ذلك جديداً إلا عنايته الواسعة بالجناس . وما يزال أبو العلاء على هذه الحال من التقليد حتى يتبين نفسه فيستقل عن المتنبى ويؤلف لزومياته ، وهى من طراز جديد إذ نراها تتضمن نقداً للحياة الاجتماعية مع دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض الدنيا ، يسوده فى ذلك كله تشاؤم واسع ، فالحياة كلها آلام ونَصب وعذاب . وكان الشعراء قبل أبى العلاء يعنون بهذا الجانب وخاصة أبا العتاهية والمتنبى ، أما أبو العتاهية فله مقطوعات كثيرة فى ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها لأنها دائماً مشوبة بالأكدار ، وأما المتنبى فقد أشاع فى ديوانه — وأكثره مديح — ضرباً واسعاً

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص٥٥١ .

(٢) كان أبو العلاء يتعصب للمتنبى ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبى نواس وأبى تمام ، وكان يسمى كل شاعر باسمه فإذا قال الشاعر فقط عرف أنه يريد المتنبى ، ونحن نعرف قصته فى بغداد مع المرتضى فقد تنقص المتنبى يوماً فاعترضه أبو العلاء وقال له : لو لم يكن للمتنبى من الشعر = إلا قوله (لك يا منازل فى القلوب منازل) لكفاه فضلا ففضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه ، وقال لمن بحضرته أتدرون أى شىء يريد بهذه القصيدة فلم يجب أحد فقال يريد قول المتنبى فيها :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص
فهى الشهادة لى بأنى كامل

انظر فى ذلك معجم الأدباء لياقوت ١/١٦٩ .

من التشاؤم يعمه نقد شديد للحياة الاجتماعية ؛ وبيان لما فى الدنيا من آلام وتفكير فى حقائق الحياة والموت . وليس من شك فى أننا إذا أردنا أن نبحث عن أصول الأفكار فى اللزوميات وجدناها جميعاً عند المتنبى على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وإذن فموضوع اللزوميات ليس جديداً وما نرى فيها من تشاؤم ودعوة إلى الزهد فى الحياة وسرد للحكم والعظات ، كل ذلك ليس جديداً خالصاً ، فقد وُجد قبل أبى العلاء ، غير أن من الحق أن نشهد بأنه كبّره ووسعه واستطاع أن يخرجه فى ديوان خاص به يؤلفه على الحروف الهجائية ، ويملؤه بهذا التشاؤم الواسع وما ينطوى فيه من وصف للدنيا بأنها دار آلام وعذاب ؛ وقد ذهب يستعرض الحياة فيها من جميع جوانبها وينقدها نقداً ساخراً فى جرأة وصراحة صريحة كأن يقول فى نقد الحياة السياسية :

وأرى ملوكًا لا تحوط رعيّةً ... فعلامَ تُؤْخَذُ جزْيَةٌ ومكوسُ

أو يقول فى نقد حُكّام عصره :

يسوسون الأمورَ بغير عقْلٍ ... ويَنْفُذُ أمرُهمْ فيقال ساسَه
فأفٍّ من الحياة وأفٌّ منى ... ومن زمنٍ رِياسَتُه خساسَهْ

أو يقول :

مُلّ المُقامُ فكم أعاشرُ أمّةً ... أمرتْ بغير صلاحها أمرَاؤها
ظلموا الرّعيّةَ واستجازوا كيدَها ... فَعَدَوْا مصالحها وهمْ أجرَاؤها

فإذا ترك الحياة السياسية نظر فى الحياة العامة للناس وما يسودها من رياء ونفاق وما يعمها من حب للمادة ، وما ينطوى فيها من شر ، فإذا هو ساخط على الدنيا والناس من حوله سخطاً شديداً ، وإذا هو ينقلب عليهم حنقاً مغيظاً يذمهم ويذم الدنيا معهم ذماً شنيعاً ، كأن يقول :

يَحْسُنُ مَرْأى لبنى آدَمٍ ... وكلهمْ فى الذوق لا يعذبُ
أفضلُ من أفضلهم صخرةٌ ... لا تظلمُ الناسَ ولا تكذبُ

أو يقول :

لعمرك ما الدنيا بـدار إقامة ولا الحيُّ فى حال السَّلامة آمِنُ
وإنَّ وليدًا حلَّهـا لمُعَذَّبٌ جرتْ لسواهُ بالسعودِ أيامِنُ

أو يقول :

عجبتُ للأمِّ لما ماتَ واحدُها بكتْ وساعدها ناسٌ يبكُّونَه
هُمُ أسارَى مناياهمْ فما لهمُ إذا أتاهم أسيرٌ لا يفكُّونَه

أو يقول :

نُمْسِي ونُضْحي فى ضلالاتنا وما على الغـبراء إلا سَفِيه
فنســأل الواحـدَ إنْقاذنا من عالم السوءِ الذى نحن فيه

أو يقول :

خَسِسْتِ يا أمَّنَا الدُّنيا فأفٍّ لنا بنى الخسيسةِ أوْباشٌ أخِسَّاءُ

وعلى هذا النمط استمر أبو العلاء يهاجم هذا العالم بكل ما فيه ، فقد كان يتراءى له فى صورة حمقاء منكرة ، وتمادى به تشاؤمه فهجا آدم وحواء والناس جميعاً :

إن مازتِ الناسَ أخلاقٌ يعاشُ بها فإنهم عند سوء الطبع أسواءَ
أو كان كل بني حوَّاء يُشْبِهني فبئس ما ولدتْ للناس حواء

وكان لحواء وبناتها حظ واسع من هذا الهجاء ، فهنّ أصل هذا البلاء فى الأرض وأصل هذا النسل الذى يعيش فى دار النحس والشقاء :

فليتَ حَوَّاء عقيمًا غدتْ لا تلد الناسَ ولا تَحْبَلُ

بل ليت الناس يمتنعون عن النسل والزواج حتى يتحطم هذا العالم الذى يسير هذه السيرة العرجاء فى توزيع الحظوظ والأرزاق :

لو أنَّ كل نفوس الناس رائيةٌ كرأى نفسٍ تناهتْ عن خطاياها
لعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

إذن ما قام هذا العالم الفاسد ، الذى لا يستطيع أبو العلاء أن يفهم له

نظاماً ! إنه شر خالص ! وليس لهذا الشر من دواء إلا أن يتحطم فنستريح الراحة الكبرى ، فإن لم يتحطم هذا العالم من نفسه فلنحطمه نحن بأيدينا هذا التحطيم السلبي ، فنعطِّل الزواج والتناسل ،ولعله من أجل ذلك كان يهاجم المرأة هجوماً عنيفاً ، كأن يقول :

ومن صفات النســاء قِدْماً أنْ لسْنَ في الوُدِّ مُنْصِفاتِ
وما يَبِين الوفــاءُ إلاَّ في زمن الفَقْدِ والوَفاةِ

أو يقول :

ألا إنَّ النساء حبالُ غَيٍّ بهنَّ يُضيَّعُ الشَّرَفُ التَّليدُ

ويستمر أبو العلاء في ترديد هذا السخط على الحياة والناس الذين يحيون فيها من رجال ونساء . والإنسان لا يتابعه في لزومياته حتى تكثر في سمعه هذه الأنغام التي تدل على أنه مغيظ من الناس جميعاً غيظاً شديداً ، فهو حنق عليهم ضيق بهم وبكل شيء فيهم حتى تقواهم ودينهم :

نادتْ على الدِّين في الآفاق طائفةٌ يا قومِ من يشتري ديناً بدينارِ
جَنَوْا كبائر آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائر تجني الخُلْدَ في النَّارِ

ويقول في بعض الوعَّاظ والنساك :

بِخِيفَــةِ الله تَعَبَّدْتَنَا وأنتَ عَيْنُ الظَّالِمِ اللاَّهِي
تأمــرنا بالزهد في هــذه الـ دُّنْيا وما هَمُّكَ إلا هِي

ويقول :

توهَّمتَ يا مغرورُ أنَّكَ دَيِّنٌ عليَّ يمين الله ما لك دينُ
تسير إلى البيت الحرام تَنَسُّكاً ويشكوكَ جارٌ بائِسٌ وخَدينُ

ويقول أيضاً :

سَبِّحْ وصَلِّ وطُفْ بمكَّةَ زائراً سَبْعينَ لا سَبْعاً فلستَ بناسِكِ

وكما يهاجم الوعاظ والنساك وغيرهم من علماء الدين يهاجم المتصوفة أيضاً هجوماً عنيفاً ، وكان يسخر خاصة من الرقص الذي شاع بينهم في عصره على

نحو ما نعرف الآن فى حلقات الذكر . يقول :

تزيَّوْا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزْتَ الرجال أو اعتميت(١)
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهم ثُمالٌ من كُميتِ(٢)

ويقول أيضًا :

تستَّروا بأمورٍ فى ديانتهم وإنما دينهم دين الزناديقِ
نكذِّب العقل فى تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرامٍ وتصديقِ

وهكذا استمر أبو العلاء يرى الدنيا هذه الرؤيا السوداء ، وتجمعت ظلمات كثيرة من حوله بعضها فوق بعض ، فالدنيا آلام وعذاب ونكبات ونوائب ، بل هى شر مستطير يجب أن نتخلص منه فنخرج من هذا العالم الموحش المظلم ، ونستريح من متاعبه وآلامه :

حياتىَ تعذيبٌ وموتىَ راحةٌ وكلٌّ ابن أنثَى فى التراب سجينُ

ولا شك فى أن أبا العلاء بتشاؤمه وسخطه على الدنيا والناس من حوله يثير فى أنفسنا ضروباً من الشفقة عليه إذ كان يتجرَّع الحياة غُصَصاً خالصة . ولو أنه أخذ نفسه بالرضا والتسليم فاقتنع بحظه وحظ الناس من حوله ، وما فى دنيانا من نصَبٍ وعذاب لاستراح وأوى إلى ظِلٍّ ظليل ، ولكنه لم يرض ولم يسلِّم ولم يقتنع فسَعَّرَ نفسه وأودى بها فى هذا الجحيم المظلم من الإحساس بالشقاء والتعاسة وما ينطوى فيهما من تشاؤم شديد ، وظَلّ فى هذا الجحيم يصارع الناس ويصارع الحياة حتى صرعته .

٤

اللزوميات وفلسفة أبى العلاء

من يقرأ اللزوميات ويتتبع سيرة أبى العلاء يرى أنه كان يسلك منهجاً واضحاً فى معيشته وعقله وتفكيره ، فهو يبدأ فيقيد لذائذه ، ويحدِّد نفسه بقوانين

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار . (٢) الكميت : الخمر . ثمال : سكارى .

صارمة فى مطعمه وملبسه ، إذ كان يختار خشن الثياب والطعام ، وقصّ ذلك فى شعره فقال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البُلْسنُ والبلَس ُ فهما يقنعانه، وهما غذاؤه فى حياته ، وهو غذاء يجد فيه راحته النفسية، لأنه غذاء زاهد متقشف يرفض لذائذ الحياة وما ينطوى فيها من لذائذ الطعام :

يُقْنِعُنى بُلْسُنٌ يُمارَس لى ... فإنْ أتَتْنِى حلاوةٌ فَبَلَس
فَلُسَّ ما اخترتَ إنْ أروَحَ مِنْ ... يسارِ قارونَ عفّـةٌ وفَلَس[(١)]

ويقول الرحالة ناصر خسرو — وقد مرّ بالمعرة فى حياة أبى العلاء —: إنه « تزهد فلبس بسيطاً ولزم بيته وقوته نصف مَنٍّ مِنْ خبز الشعير[(٢)] » . ويقول القفطى : « لم يكن أبو العلاء من ذوى الأحوال فى الدنيا، وإنما خُلِّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تَشْرُفُ عن تحمّل المنن فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خَشن الملبوس والمأكل والزهد فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين ديناراً قدّر منها لمن يخدمه النصف وأبقى النصف الآخر لمئونته ، فكان أكله العدس — إذا أكل — مطبوخاً ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن ، وفرشه من لباد فى الشتاء وحصيرة من البرْدىّ فى الصيف، وترك ما سوى ذلك »[(٣)] .

وكل هذا يدل على أن أبا العلاء كان يأخذ نفسه بحياة خشنة زاهدة ، ولعل ذلك ما جعله ينفر عن مديح الرؤساء طلباً للجوائز والمكافآت . يقول فى مقدمة سقط الزند: « ولم أطّرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس، فالحمد لله الذى ستر بغُفّة[(٤)] من قوام العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوَفْر ». فهو لا يمدح طلباً للنوال ، وماذا يفيده النوال ؟ لقد رفض كل شىء وعاش عيشة الكفاف والزهد ، وكان يصنع ذلك عن عمد وقصْد إليه . روى الرواة أن

---

(١) لس : كل ، ولس : أكل .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز ٢ / ١١٠ .

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٣١ .

(٤) الغفة : البلغة من العيش . والسوس : الطبيعة .

« المستنصر صاحب مصر بذل له ما ببيت المال بالمعرة من المال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لا أطْلُبُ الأرزاقَ والـ ـمَولى يُفيضُ علىَّ رِزْقى
إن أُعْطَ بعضَ القـوت أعْ لمْ أنَّ ذلك فوق حقّى »[١]

لم يكن أبو العلاء يطلب مالاً ولاعطاء ، لأنه كان زاهداً فى حياته متقشفاً يكفيه القليل الذى يقيم أوَده ، أما ما دون ذلك فهو ينبذه ، وماذا نريد من الدنيا وهى تنتهى بنا إلى الفناء وتسوقنا إلى الموت سوقاً حاملين ما نحمل من أثقال كروب وآلام ! إن علينا أن نقوِّى أنفسنا بالزهد حتى نلقى هذا المصير المحتوم :

لا تَشْرُفَنَّ بدنيا عنك مُعْرِضَة فما التَّشَرُّف بالدُّنيا هو الشَّرَفُ
واصرف فؤادك عنها مثلما انصرفتْ فكلنـا عن مغانيهـا سننصرفُ
يا أمَّ دفْرٍ[٢] لحـاكِ اللهُ والدةً فيك العناءُ وفيك الهمُّ والسَّرَفُ
لو أنَّك العِرْسُ أوقعتُ الطلاق بها لكنَّك الأمُّ ما لى عنك مُنْصَرَفُ

واستمر أبو العلاء نحو خمسة وأربعين عاماً يصرخ فى الناس بهذه الدعوة الحارة إلى الزهد والتقشف ؛ وبدأ بنفسه فسنَّ لها قوانين من الزهد صارمة التزمها طوال حياته ، فلم يتعلقَ بشىء من زخارف الدنيا وزينتها ، بل رفضها فيما رفض ورفض معها متاع الأولاد والزواج لا لسبب سوى هذا الحرمان الذى كان يأخذ نفسه به ، وفى ذلك يقول :

لو انَّ بنىَّ أفضَلُ أهْلِ عَصْرِى لما آثَرْتُ أن أحظى بنَسْلِ

وفى امتناعه عن الزواج والنسل ما يجعلنا نرى جانباً من تشاؤمه الأسود الذى ضرب ظلماته على حياته وجميع أفكاره ، ولعل ذلك ما جعله يوصى بأن يُكْتَبَ على قبره :

هـذا جنَاهُ أبى علـ ـىَّ وما جنيْتُ على أحـدْ

وحقًّا أن أبا العلاء لم يجْنِ على أحد لا من حيث النسل والزواج فقط بل أيضًا من

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٦٩ . (٢) أم دفر : الدنيا .

حيث حاجاته فى الحياة فقد كان زاهداً فيها زهداً شديداً ، وكان لا يريد أن يتصل منها بشيء لا بأزواج وأولاد ولا بغير أزواج وأولاد ، وهاجم فكرة الزواج والنسل فى شعره كثيراً كقوله الذى أنشدناه :

فليت حَوَّاءَ عقيماً غَدَتْ　　　لا تَلِدُ الناسَ ولا تَحْبَلُ

كان أبو العلاء برماً بالحياة وكان يراها سلسلة آلام ، فأكثَرَ من نقدها ونقد الذين يعيشون فيها . وأعجَبَ بعض الناس هذا النغم الذى يردده أبو العلاء ، وراعهم أنه كان صاحب عقل حُرٍّ بالنسبة لأهل عصره فهو يهاجم أصحاب الأديان ، فذهبوا إلى أنه كان فيلسوفاً ، وحشروه فى زمرة الفلاسفة ، ومن العجب أن نجد مثل نيكلسون[1] وهيار[2] يذهبان هذا المذهب ، وليس لرأيهما ولا لمن تبعهما أى دليل على هذه الفلسفة إلا إذا كنا نعد كل زاهد يدعو إلى الزهد والتقشف فى الحياة فيلسوفاً . وزُهْد أبى العلاء وما يَطْوَى فيه من نظر جريء إلى مسائل الدين لا يكفى لنعده فيلسوفاً بالمعنى اليونانى لهذه الكلمة إنه لم يُعْرَفْ عنه أنه كان ملخِّصاً للفلسفة اليونانية على نحو ما صنع الفارابى وغيره من جماعة الفلاسفة المسلمين ، وهو أيضاً لم يعرف عنه أنه نمَّى مذهباً من مذاهب الفلسفة اليونانية ، ولذا كان من الخطأ أن يجعل بعضُ النقاد أبا العلاء فيلسوفاً بالمعنى اليونانى لهذه الكلمة ، وهو لم يلخِّص الفلسفة اليونانية فضلاً عن أن يكون من المنمِّين لها ولا كان من المتعلِّقين بمذهب من مذاهبها .

وأكبر الظن أن شُبْهة فلسفة أبى العلاء جاءت من أنه كان نباتيًّا يحرِّم على نفسه أكل اللحم واللبن والبيض والسمك وعسل النَّحل ، وفى ذلك يقول :

غَدَوْتَ مريض العقل والرَّأى فالْقَنى　　　لتعلمَ أنباء الأمور الصحائح
فلا تَأْكلَنْ ما أخرجَ الماءُ ظالماً　　　ولا تَبْغِ قُوتاً من غَريض الذَّبائح[3]

---

(١) Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 313.

(٢) Huart, Littérature Arabe, p. 99.

(٣) الغريض : الطرى .

وَأَبْيَضَ أَمَّاتٍ أرادتْ صَرِيحَهُ　　لأطفالها دونَ الغوانى الصَّرَائح[١]
وَدَعْ ضَرَبَ النَّحْلِ الذى بَكَرَتْ لهُ　　كَوَاسِبُ من أزْهارِ نَبْتٍ فوَائح[٢]

والمراد بالأبيض اللبن .

والمعروف أن أبا العلاء ترك أكل اللحم ومشتقاته رحمة بالحيوان . روى الرواة أن سائلاً سأله : « لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان ، قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان الخالق الذى دبّر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطبائعُ المحدثةَ لذلك فما أنت بأحذق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك » . ويعلق ابن الجوزى على هذه الرواية فيقول : « لقد كان يمكنه أن لا يذبح رحمة فأما ما ذبحه غيره فأىُّ رحمة قد بقيت فى ترك أكله »[٣] . على كل حال كان أبو العلاء نباتياً وقد صدّ عن أكل اللحم ودعا إلى ذلك ، وله حوار طريف مع داعى الدعاة فى هذه المسألة يرجع إليه القارئ فى ترجمته بياقوت ، ولكن هل هذه النباتية فى أبى العلاء تجعلنا نزعم أنه فيلسوف ؟ إنها طريقة فى الحياة وليست طريقة فى التفكير . على أننا إذا أردنا تصحيح القياس وجب لكى نُثْبت فلسفته عن هذه المقدمة أن نكون على يقين من أن هذه النباتية يونانية أو أنها مذهب فلسفى من مذاهب اليونان ، وليست النباتية من مذاهب اليونان ولا من فلسفتهم ؛ إنما هى مذهب هندى يرجع إلى البراهمة ، وقد قصّ علينا ذلك كلُّ من ترجموا لأبى العلاء ، يقول ابن الأنبارى : « يُحكى عنه أنه كان برهمياً وأنه وُصِف لمريض فرُّوجٌ ، فقال : استضعفوك فوصفوك »[٤] ويقول ابن الجوزى : « كان ظاهر أمر أبى العلاء يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ويجحدون الرسل »[٥] ويقول ياقوت عنه : « كان متهماً فى دينه ، يرى رأى البراهمة : لا يرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور »[٦] . ويقول أبو الفداء :

---

(١) صريحه : خالصه . الصرائح : الجميلات .
(٢) الضرب : العسل الأبيض الثقيل .
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ١٩ .
(٤) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى (طبع مصر) ص ٤٢٧ .
(٥) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ١٩ .
(٦) المصدر نفسه ص ٤٦ .

« نُسب أبو العلاء إلى التمذهب بمذهب الهنود لتركه أكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وكذلك البيض واللبن ، وكان يحرّم إيلام الحيوان »[١] . ويقول ابن فضل الله العُمَرِيّ : « ترك أبو العلاء أكل لحوم الحيوان وعموم ما يجرى مجراها من الأعسال والألبان ومال فى هذا إلى رأى الحكماء ! وقال بمذهب البراهمة فى تجنُّب إراقة الدماء »[٢] . ويقول السَّلَفى : « من عجيب رأى أبى العلاء تركُه تناول كل مأكول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نُسب إلى التبرهم ، وأنه يرى رأى البراهمة فى إثبات الصانع وإنكار الرسل ؛ وفى شعره ما يدل على هذا المذهب »[٣] . وواضح من هذه النصوص أن العرب لم يصلوا بين نباتية أبى العلاء وفلسفة اليونان ، إنما وصلوا بينها وبين التبرهم والبراهمة ، فهى ليست شيئاً يونانيًّا ، ومن الخطأ أن يعتمد عليها بعض الباحثين فى إثبات فلسفة أبى العلاء ، وهى لا تمت مباشرة إلى اليونان وفلسفتهم .

والحق أن أبا العلاء ليس فيلسوفًا بالمعنى اليونانى لهذه الكلمة إلا إذا توسعنا فى معناها وجعلنا كل شخص يفكر تفكيراً حرًّا فيلسوفًا أى محبًّا للحكمة ، آخذاً بقوانين العقل غير متقيد بعُرْف الناس ولا بما يعتنقون من آراء وأفكار . إذن يكون أبو العلاء فيلسوفًا ، ومن أهم ما يميزه ما نراه عنده من تشاؤم شديد ، فالعالم ملىء بالشر وأيضًا ما نراه عنده من شكوك .

يقول التبريزى : « إن أبا العلاء سألنى يوماً ما الذى تعتقد ؟ فقلت فى نفسى : اليوم أقف على اعتقاده ، فقلت له : ما أنا إلا شاكّ ، فقال : وهكذا شيخك »[٤] . وأقرّ أبو العلاء بهذا الشك فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة إذ يقول : « قد بدأ المعترف بجهله المقرُّ بحيرته والداعى إلى الله سبحانه أن يرزقه ما قلّ من رحمته[٥] » . ويظهر أنه كان لمحنة أبى العلاء فى بصره أثر فى تكييف هذا الشك العلائى ، فقد كان يضيق بما أصابه من هذا الشر فى بدء حياته ولم يستطع له

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١/٢٠٤ .
فى حوادث ٤٤٩ .
(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١٧ .
(٣) لسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١/١٢٠ وانظر أيضاً ص ٢٠٤ .
(٤) معجم الأدباء (طبعة مرجليوث) ١/١٧١ .
(٥) معجم الأدباء

تفسيراً فرجع يشك فى بعض الحقائق ، حتى ليشك فى الشك نفسه ، وهذا مصدر ما نجد عنده من تناقض يعترى آراءه. وليس من شك فى أن اللزوميات تريناأبا العلاء حائراً حيرة شديدة ، فالدنيا كلها وما وراءها ظلام وسواد ولُججٌ واسعة من الحيرة :

الحمد لله قد أصبحتُ فى لُجَجٍ مُكابداً من هموم الدهر قاموسا[1]

واتسعت هذه اللجج عليه ولم يستطع أن يقاومها ولا أن يخرج منها ، فمكث فيها تائهاً حائراً ، واستمرَّ يقص علينا فى لزومياته قصة هذا الطوفان ، فقد أطبقت عليه الأمواج من كل جانب ، وكأنما أفسدت عليه جميع الطرق والمناهج :

قد ترامتْ إلى الفساد البَرايا واستوتْ فى الضلالة الأدْيانُ
أنا أعمى فكيف أهْدَى إلى المنْـ ـهجِ والناسُ كلهم عُمْيانُ

ولم يستطع أبو العلاء حقًا أن يهتدى إلى المنهج فى كثير من المسائل والمشاكل فشك واتسع عليه الشك حتى جعله لا يؤمن بيقين ، وعبّر عن ذلك فى مرثيته لأبيه تعبيراً واضحاً ، إذ يقول :

طلبت يقينًا من جُهَيْنَةَ عنهمُ ولمْ تُخبرينى ياجُهَيْنُ سوى الظن[2]
فإنْ تعهـدينى لا أزال مسائلاً فأنّى لم أُعْطَ الصحيحَ فأستغنى

ويقول أيضًا :

أما اليقـينُ فـلا يقـينَ وإنما أقْصى اجتهادى أن أظُنَّ وأحْدِسا

فأبو العلاء يطلب اليقين فلا يجد إلا الظن والحدس ، وإذن فمن الخطأ أن يأتى باحث فيراه يقول رأياً فيظنه يقيناً ، ثم يراه يخرج عنه فيقول : إنه مضطرب متناقض ، فإن أبا العلاء لم يكن صاحب يقين فى رأى من الآراء ، بل هو صاحب ظن وحَدْس وشك ، وهو يعمم هذا الشك فى كل شىء ، سوى إيمانه بربه ، إذ يقول :

---

(١) القاموس : المحيط .

(٢) يشير إلى المثل العربى القديم : عند جهينة الخبر اليقين .

أثبتُّ لى خالقًا حكيمًا ولستُ من معشرٍ نُفاةِ

فأبو العلاء لم يكن يشك فى ربه إذ كان يرى كل شىء حوله يشهد بوجوده، وهو كذلك لم يكن يشك فى عقله ، بل لقد كان يؤمن به إيماناً شديداً ، يقول فى بعض شعره :

كذب الظنُّ لا إمام سوى العقـ ـلِ مشيراً فى صبحه والمساءِ

ويقول أيضاً :

وشاور العقلَ واتركْ غيره هدَراً فالعقل خيرُ مشيرٍ ضمَّهُ النَّادى

إلا أن هذا العقل كان قاصراً ولم يستطع أن يفسر له أسرار الكون وما فيه من حقائق الخير والشر ومن هنا اعترف كما مر بنا آنفا أنه لا يكاد يوجد يقين وأن مبلغ علم الإنسان أن يظن ويحدس ، وكأن العقل يضطر أحياناً إلى التوقف دون اليقين عند أسوار الظن والحدس . وآمن خاصة فى المسائل الشرعية أن العقل ينبغى أن لا يجمح وأن لا يحاول الخروج على الشرع بل يكون تابعاً له ، يقول :

وجدنا اتباع الشرع حزماً لذى النُّهى ومن جرَّب الأيام لم ينكر النَّسْخا

وقد توقف بعض الباحثين عند أبيات فى اللزوميات رآه فيها يهاجم الديانات فظن أنه يهاجمها حقًّا ، وهو إنما يهاجم أصحابها ، يقول :

هفَتِ الحنيفةُ والنصارى ما اهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مضلَّلَهْ

اثنانِ أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٌ لا عقلَ لهْ

ويقول :

دينٌ وكفرٌ وأنبـاءٌ تُقالُ وفُرْ قان يَنُصُّ وتوراةٌ وإنجيلُ

فى كل جيلٍ أباطيلٌ ملفَّقةٌ فهل تفرَّدَ يومًا بالهُدى جيلُ

وواضح أن أبا العلاء إنما يهاجم فى البيتين الأولين أصحاب الديانات الذين توزعتهم الفرق والأهواء فأهدروا عقولهم ، حتى عمت الحيرة والتبس الأمر ، وهو فى البيتين التاليين إنما ينص على أنه لا يوجد جيل يخلو من الكفر والضلال . وليس فى ذلك هجوم على الأنبياء ولا هجاء كما ظن بعض المعاصرين .

ولا نستطيع أن نخرج من كل ذلك بأن أبا العلاء كان زنديقاً أو ملحداً كما قال بعض القدماء ، والواقع أنهم تطرفوا حينما أضافوا إلى أبي العلاء الزندقة والإلحاد ملتمسين ذلك فى أبيات حملوها على معنى مخالف لما قصده ، وهى قليلة جداً فى لزومياته ، إذ كثرتها تحميد وتقديس وتمجيد فى الله . على أننا إذا تطرفنا مع هؤلاء السابقين وجعلنا أبا العلاء زنديقاً أو ملحداً لم يكن هناك ما يبرر أن نزعم بأنه فيلسوف ؛ لأن الإلحاد والزندقة ليسا هما الفلسفة فالفلسفة شيء والإلحاد والزندقة شيء آخر ، وإلا سقط من تاريخ الفلسفة كثير من الفلاسفة المسيحيين والمسلمين .

والحق أن أبا العلاء كان مفكراً حر الفكر وكان زاهداً صادق الزهد وكان شديد التشاؤم غير أنه لم يستطع أن يخرج من ذلك إلى إحداث نظرية معينة أو منهج معين يمكن أن نسميه « المنهج الفلسفي لأبي العلاء » إلا إذا كنا ممن يلتقطون بعض الأقوال للشعراء ويحاولون أن يحمّلوها أكثر من مدلولها ، ثم يستخرجوا لهم فلسفة ذات أصول وفروع متشابكة . ونحن بهذه الطريقة نستطيع أن نجعل أبا العلاء فيلسوفاً ، كما نستطيع أن نجعل المتنبي وأبا تمام وأبا العتاهية فلاسفة بأفكار معدودة وآراء محصورة جاءت فى أشعارهم . والحق أن ذلك كله مبالغة فى البحث يؤدّى إليها عادة غلو الباحث فى الإعجاب بالشاعر الذى يبحثه . وكان من حسن حظ أبي العلاء أن غالى كثير من المعاصرين الذين عُنوا ببحثه . فأثبتوه فيلسوفاً لما رأوا عنده من تشاؤم وحيرة وشك وزهد ، ولكن هل يكفى التشاؤم أو الزهد أو الحيرة لنعد شخصاً فيلسوفاً ؟ أما نحن فلا نشك فى أن أبا العلاء لو كان فيلسوفاً حقّاً لفلسف تشاؤمه فى الحياة فجعله فى شكل كلية عامة ، وطبق هذه الكلية على الجزئيات المختلفة تطبيقاً شاملاً ، إذن كان يتساءل كيف نحكم على الأشياء وما أدواتنا فى المعرفة ، هل هى الحس أو الفكر أو هما جميعاً . ولكنه لم يصنع شيئاً من ذلك ، إنما كل ما صنعه أنه استراح إلى العقل فى الحكم على الأشياء وألقى عليه العبء كله ، ولو أنه صاحب عقل فلسفى لشك فى هذا العقل نفسه وامتحنه وأخضعه للتجربة على نمط ، يحلل فيه المعرفة فى الطبيعة وما وراء

الطبيعة . وكنا ننتظر منه أن يتساءل هل يمكن للعقل أن يعرف ما وراء الطبيعة من مسائل البعث والنشور أو لا يمكن ؟ وإذا ثبت إمكان ذلك فهل طريقنا إليه العقل أو الشعور ؟ وهل يمكن للعقل أن يحكم فى قضايا ما وراء الطبيعة كما يحكم فى قضايا الطبيعة ؟ وهل أحكام العقل المجرد تكون صواباً دائماً ، أو أنها معرضة للخطأ ؟ كل ذلك لا نجد له أثرا عند أبى العلاء لأنه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وآية ذلك أنه لم يترك أى نظرية فلسفية معللة أو موضّحة ، وكيف له بصُنْع نظريات ؟ إنه لم يكن يفكر التفكير الفلسفى الذى يقوم على صنع كليات ، إنما كان يفكر تفكيراً أدبيًّا يقوم على تشاؤم وسخط ، وهو يعرض هذا التفكير فى آراء متفرقة وأفكار مفككة ، لا يطّرد لها نظام ولا سياق فكرى متماسك .

٥

صياغة اللزوميات

من يقرأ اللزوميات وينظر فيها نظرة فنية من حيث الصياغة والتنسيق يلاحظ أن جوانب كثيرة منها واهية ، إذ استغرقها أبو العلاء بالتكرار حتى كاد أسلوبه أن يسقط فى غير موضع من مواضعها ، نعم إنه وفّق فى بعض أبياتها ولكن الكثرة الغالبة يعمها الإسفاف والضعف ، وكأنى به نسى أسلوب الشعر الذى كان يعرفه فى سقط الزند ، وهل يستطيع الإنسان أن يؤمن بأن اللزوميات أنشأها أبو العلاء بعد ديوان « سقط الزند » بنفس صورة صياغته ؟! . على أنه ينبغى أن نعرف أن سقط الزند لا يعتبر مثلاً أعلى فى الصياغة الفنية للشعر العربى ، فديوان كديوان المتنبى يتفوق عليه فى هذا الجانب ، ولعله من أجل ذلك كان يسميه أبو العلاء « معجز أحمد » ، واستمر فى سقط الزند دون هذا المعجز إلا فى مراثيه ، فقد أظهر فيها تفوقاً نادراً من حيث الصياغة وخاصة مرثيته :

غَيْرُ مُجْدٍ فى ملتى واعتقادى نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وإن هذه القصيدة لتتفوق على كل ما كتبه فى لزومياته ، ولعلنا لا نبالغ إذا

قلنا إنه يسود فيها الخلل والضعف فى البناء . وكان القدماء أنفسهم يعرفون فرق ما بين الديوانين، فالذهبي يقول إن السَّقْط جيد بخلاف اللزوميات[١] ، وفى غير موضع نجدهم يشيدون بالسقط[٢] ، وحقًّا ما يقوله «نيكلسون» من أن أبا العلاء يدين بشهرته فى المشرق إلى مجموعة أشعاره الأولى المسماة بسقط الزند[٣] ، فإن أبا العلاء الشاعر إنما نلقاه فى السقط ، أما فى اللزوميات فلا بد من إضافة وصف آخر غير وصف الشاعر ، نسميه أبا العلاء الواعظ أو الزاهد أو المتشائم أو نحو ذلك من أوصاف تعبر عن موضوع الديوان ، أما كلمة الشعر والشاعر فمن الصعب أن نضيفهما إليه . يمكن أن نسميه الناظم ولكن من الصعب أن نعطيه لقب الشاعر ، أو نسمى ما فى اللزوميات شعراً ، وربما كان ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى أنه لم يتأنَّ ولم يتمهل فى صُنع اللزوميات . روى ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار عن بعض القضاة أنه قال : « بينما أنا عند أبى العلاء المعرى فى الوقت الذى يُمْلى فيه شعره المعروف بلزوم ما لا يلزم، فأملى فى ليلة واحدة ألفى بيت . كان يسكت زماناً ثم يملى قريباً من خمسمائة بيت ثم يعود إلى الفكرة والعمل إلى أن أكمل العدة المذكورة »[٤]. وقد سُقنا هذه الرواية لندل بها على أن أبا العلاء لم يكن يعنى بتجويد شعره وتحبيره فى اللزوميات فهو لا يعطيه المهلة الكافية للصقل والانتخاب والتنقيح ، ثم التأليف والتنسيق، فخرج شعره مهلهلاً ضعيف النسج ليس فيه شىء من حَبْكة التعبير ولا جمال التصوير إلا فى القليل الأقل . وليس هذا فقط هو كل الأسباب ، فهناك سبب آخر ربما كان أهم من السبب السابق ، وهو الطريقة التى أخرج بها أبو العلاء لزومياته ، أو بعبارة أدق الغاية التى أرادها للزومياته ، فقد كان — فيما يظهر — يريد أن يخرجها فى شكل خُطَب وعظ وإرشاد ؛ يقول فى مقدمتها : « إنها تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد ووضع المِنَنَ فى كل جيد، وبعضها

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٣١٨ . (الطبعة العربية) ص ٣٨١ .

(٢) الأنساب للسمعانى ص ١١٠ . (٤) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٤٩ .

(٣) المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية

تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا » . فهو يقصد بها إلى الوعظ ، وهى لذلك تمتلىء بما تمتلىء به أساليب الوعظ من التكرار المُمِلّ ، ومن أجل ذلك كنا نشعر حين قراءتنا اللزوميات بملل وسأم شديد ، لأن الشاعر يتنقل بين أفكار يبدئ فيها ويعيد ، وقد أخرجها فى أسلوب واهٍ ، ليس فيه جمال فنى ولا طرافة فنية إلا قليلاً .

والحق أن أبا العلاء لم يستطع أن ينهض بالصياغة الفنية فى لزومياته إذ كان يعتمد على تكرار الأفكار ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن هناك مجموعة من الأفكار ما يزال ينظمها أبو العلاء على قوافٍ وحروف مختلفة ، وهو يغاير فى القافية أو فى الحرفين الأخيرين ، ولكنه قلما حاول أن يغاير فى المعانى والأفكار ، ولذلك يستطيع الباحث أن يقرأ طائفة من مقطوعات اللزوميات ويترك الأخرى ، لأنه قلما يجد جديداً إلا ما يخضع له أبو العلاء من قيود فى ألفاظه وقوافيه .

ليس فى اللزوميات غالبًا جمال فى الصياغة ولا تنويع فى الأفكار ، إنما فيها بدء وإعادة وتكرار غريب للمعانى ، وهى معان عامة وكثيراً ما ينقصها العمق والابتكار ، وما يزال المعرى ينظمها على حرف من الحروف كالباء ثم يعود إلى حرف آخر كالتاء ، وهو ينظمها مرة على حرف الباء أو غيرها مضمومة ، ثم يعود مرة أخرى أو مراراً فينظمها على حرف الباء أو غيرها من الحروف مكسورة أو منصوبة أو ساكنة . ومن أجل ذلك التكرار والإعادة كنا نملّ متابعة أبى العلاء فى لزومياته ، إذ مايزال يجترّ أفكاراً محفوظة يكررها على قوافٍ وأوزان مختلفة . ولعل مما يصور ذلك تصويراً واضحاً رسالته المسماة باسم «ملقى السبيل» حيث نجده يصوغ المعنى نثرا ، ثم يصوغه شعراً على هذا النمط ، إذ يقول : « كم يجنى الرجل ويخطىء ، ويعلم أن حتفه لا يبطئ :

إنَّ الأنامَ ليُخْطِئُو نَ ويغفرُ اللهُ الخطيئهْ
كم يبطئون عن الجميـ ـل وما مناياهمْ بطيئهْ »

وعلى هذه الصورة التى نجدها فى «ملقى السبيل» كان أبو العلاء ينظم فى لزومياته ولم يكن ينظم المعنى نثراً ، ثم ينظمه شعراً ، بل كان ينظمه شعراً ، ثم يعود

فينظمه أيضاً شعراً ، ولكن على قافية جديدة ، وقيود لفظية جديدة ، وهذا كل ما يصنعه من تغيير ، وهو تغيير قلما يضيف طرافة فى التفكير؛إذ يُدْخل عليه أبو العلاء هذا التكرار الذى يصيب الصياغة فى اللزوميات بضروب واسعة من الابتذال .

وأكبر الظن أننا لا نُبْعد حين نقول إن أبا العلاء كان واعظاً فى لزومياته، ولذلك لم يحسن صوغ أفكاره فى الأساليب الخاصة بالشعر ، لأن الوعظ من طبيعته التكرار ، وهو يلائم النثر ، ولا يلائم الشعر ؛ ومن ثَمَّ كان الخطباء والوعاظ يتخذون النثر أداة للتعبير عن أفكارهم ومعانيهم المكررة ؛ فإذا جاء خطيب أو واعظ واتخذ الشعر أداته فى الخطابة أو الوعظ كان لا بد له أن يسقط فى استخدام هذه الأداة الجديدة مهما تكن مقدرته البيانية . ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن نجد أبا العلاء يخفق فى استخدام الشعر أداة لوعظه وتشاؤمه الذى نعرفه فى اللزوميات ، وخاصة أنه أطال هذا الوعظ والتشاؤم وامتدّ به نَفَسُه إلى عشرات الصفحات بل مئات الصفحات ، فبدا فى أساليبه هذا الانهيار والسقوط وما يتبعهما من ابتذال ، بحيث لا نجد ما يعجب حاستنا الفنية إلا فى النادر ، فالأفكار عارية لا يحول بينها وبين الإسفاف حائل ، ولذلك قلما نحس فى أثناء قراءتنا اللزوميات ببهجة فنية ، إذ لم يستطع أبو العلاء أن ينهض بصياغتها إلا هذا النهوض القاصر الذى يعود بالشعر وكأنه يشبه أساليب الوعظ والإرشاد .

٦

اللوازم الدائمة فى اللزوميات

لم يوفِّر أبو العلاء مجهوداً واسعاً فى إحكام صياغته ؛ إذ كان مشغولاً عنها بعُقَدٍ ولوازم غريبة فى لزومياته ، فهو يصعِّب على نفسه الممرَّات إلى شعره ، ويتقيد بلوازم دائمة يتَّبعها فى صناعته . ولعل أهم هذه اللوازم ما أشار إليه فى مقدمة ديوانه إذ يقول : « وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كُلَف ، الأولى أنه يتنظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أنه يجىء رَوِيُّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل رَوِىٍّ فيه شىء لا يلزم من باء أو

تاء أو غير ذلك من حروف » . ونحن نلتفت من هذه الكلف إلى أن اللزوميات ليست ديواناً بالمعنى المألوف عند العرب ، ولعل ذلك ما جعل أبا العلاء يسميها فى مقدمته لها تأليفاً ، وسمّاها مرة أخرى كتاباً ، وحقًّا إنها أُلّفت على شكل التآليف والكتب ، فقد قُسِّمت إلى أبواب وقسمت الأبواب إلى فصول وهل هناك ديوان قبل اللزوميات نُظِم شعراً ووُزِّع — على هذا الطراز — إلى أبواب وفصول كما يصنع أصحاب النثر بتآليفهم وكتبهم ؟ !

ومهما يكن فاللزوميات أول ديوان فى اللغة العربية يؤلَّف على طريقة خاصة يذكرها الشاعر فى مقدمته ويطبِّقها على أبياته بيتاً بيتاً . وهذه الطريقة يحددها أبو العلاء بثلاث كُلَف ، ولكن لنحذر هذا التحديد ، فهى أكثر من ذلك وأوسع ، ولست أجد كلمة تعبر عن هذه الكلف الكثيرة ككلمة اللزوميات التى يظهر أنها استعيرت للديوان من كتب المناطقة لتدل على ما فيه من نسب ومعادلات بين ألفاظه وقوافيه . وإذن فتصنع المعرى فى اللزوميات لا يقف عند الكلف العروضية بل يتعداها إلى كلف أخرى كان يشغل بها هذا الفراغ الطويل الذى امتدّ إلى نحو خمسين عاماً قضاها حَبيس بيته ونظره وأفكاره المظلمة فى الحياة والكون ، وعبر عن ذلك أجمل تعبير ، إذ يقول :

أرانى فى الثلاثةِ من سُجُونى فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيثِ[1]
لفقْدى ناظرى ولزومِ بيتى وكونِ النفْسِ فى الجسم الخبيثِ

وذهب يحبس أفكاره فى هذه السجون العروضية السابقة ولم يكتف بها إذ أراد أن ينوع فيها كما تنوعت سجونه ، واستعان بثقافته على ما يريد من هذا التنويع . ولعل أهم ثقافة سجَن فى قيودها آثاره هى الثقافة اللغوية ، إذ نراه يتصنع الإغراب فى ألفاظه ، وعمَّم ذلك فى جميع أشعاره وكتاباته ، حتى ليشعر الإنسان فى أحوال كثيرة بأنه يقرأ فى متن من متون اللغة العويصة ، ولقد كان المظنون أن يبتعد بهذا الإغراب فى اللغة عن اللزوميات ، فإن ما فيها من وعظ لا تلائمه الألفاظ الغريبة إذ هو يوجَّه عادة إلى الجماهير وهى لا تعرف

---

(١) النبيث : الخفى .

الألفاظ العويصة ، ولكن أبا العلاء اتخذ هذه الألفاظ الغريبة لازمة دائمة فى صناعة لزومياته ولم يستطع أن يتخلص منها ، وقد أضاف إليها لازمة أخرى دائمة هى لازمة الجناس .

ولعل من الطريف أن أبا العلاء استطاع أن يستخدم هذا الجناس استخداماً مزدوجاً فهو يأتى به غالباً ليعبّر عن جناس من جهة وليعبر عن لفظ غريب من جهة أخرى . كان أبو العلاء يستخدم الجناس استخداماً لغويًّا يريد بهأن يدلّ على مهارته فى اللغة قبل أن يدل على مهارته فى استخدام لون قديم من ألوان التصنيع . ولم يكتف أبو العلاء بما أحدثه بين الجناس والألفاظ الغريبة من مزاوجة ، بل راح يصعّب على نفسه ، إذ نراه يطلبه بين حَشْو البيت والقافية ، حتى يحدث هذه القيم المعقدة فى قوافيه ؛ فهو يلتزم فيها حرفين أو أكثر ، وهو يلتزم فيها اللفظ الغريب ، وهو أخيراً يلتزم الجناس بينها وبين ألفاظ البيت ، أرأيت إلى هذا التعقيد ؟ إنه تعقيد ينسينا تعقيد المتنبى لموسيقاه الداخلية الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع ، بل هو ينسينا تعقيد المهلبى لملاعقه فى طعامه ؛ فالمهلبى إنما كان يكرر الوسيلة فقط ، أما أبو العلاء فإنه يستطيع أن يعقدها تعقيداً شديداً على هذا النمط الذى نقرؤه فى هذه الأبيات :

عَذِيرى من الدُّنيا عرَتْنى بظلمِها ... فتمنعُنى قُوتى لتأخذَ قوّتى
وجدت بها دِينى دَنِيًّا فضرَّنى ... وأضللتُ منها فى مُروت مُرُوّتى[1]
أخوتُ[2] كما خاتتْ عُقابٌ لوانَّنى ... قدرتُ على أمرٍ فعُدَّ أخوّتى
وأصبحتُ فى تِيهِ الحياة منادياً ... بأرفع صَوْتى أين أطلب صُوّتى[3]
وما زال حُوتى[4] راصدى وهْو آخذى ... فما لمتَابى ليس يغسل حُوّتى
رآنىَ ربٌّ الناس فيها مُتابعًا ... هواىَ فويحى يوم أسكنُ هُوّتى
أبَوْتكَ[5] يا إثمى ومنْ لى بأننى ... أتيتكَ فاشكرْ لا شكرتَ أبوّتى

فأنت تراه يجانس جناساً غريباً بين القوافى وحَشْو البيت ،وكأن أبا العلاء

---

(١) مروت جمع مرت : الأرض لا نبات فيها .
(٢) أخوت : أنقض .
(٣) الصوة : المنارة يهتدى بها .
(٤) الحوت : سواد الإثم .
(٥) أبوتك : صرت لك أبا .

يُكره الألفاظ إكراهاً على أن تؤدّى هذا الجناس المفتعل الذى لايحوى جمالاً ولا روعة فنية ، وأى جمال أو روعة فنية فى المجانسة بين قوت وقوتى ومروت ومروتى وأخوت وأخوتى وصوتى وصُوّتى وحوتى وحوّتى وهواى وهوّتى وأبوت وأبوتى؟ لكأنما عجز الشعر فى هذه العصور عن أداء الجناس القديم الذى كنا نجده فى القرن الثالث إلا أن يخرج إلى هذه الفنون من الالتواء والتعقيد . وانظرْ إلى الواو المشددة التى ختم بها أبو العلاء أبياته ، فإنها تُظهرنا على صناعته فى اللزوميات ، إذ كان يريد أن يثبت مهارته فى النظم على جميع الحروف ، فإذا هو يقع فى مثل هذه الواو المشددة الغريبة ، ولكن أى غرابة فيها ؟ ألأنها تحوى تعقيداً وتصعيباً ؟ لقد كان التعقيد والتصعيب بِدْع هذه العصور ، فما يزال الشاعر يصعب فى فنه ووسائله وأبوابه التى يدخل منها إلى صناعته ، فإذا أبو العلاء يطلب النظم على جميع الحروف ساكنة ومتحركة حركاتها المختلفة ، ولكنه لا يزال يجد سهولة فى الممرات التى ينفذ منها إلى شعره ؛ وإذن فليصعب على نفسه أكثر من ذلك ، وليطلب المجانسة بين القافية وحشو البيت حتى يحدث صعوبة ، لعل أحداً لا يستطيع أن يقلدها فى فنه ، أو يحاكيها فى نماذجه . وكأنى به رأى أن هذه الصعوبة لا تزال فى دائرة الإمكان فحاول أن يدخلها فى دائرة المستحيل قليلاً ، وما تطور الشعر عنده إن كانت وسائله لا يزال يقدر عليها غيره من الشعراء ؟ إن الفن الصحيح فى رأيه هو الذى تتميز وسائله وأدواته بالعسر والمشقة ، فإذا كان يحسن بالشاعر أن يجانس بين القافية وبين لفظة فى البيت فليطلب ذلك فى مكان يتعسر على غيره ولا ينقاد له . كان ذلك يدور بنفس أبى العلاء فذهب يبحث كيف يستحدث فى الجناس صعوبة تبلغ به ما يريد من العسر والمشقة ، وهداه بحثه بعد كثير من التجربة والاختبار إلى أن الحيز الذى يستطيع به أن يشق على نفسه وغيره بوضع جناسه فيه هو أول البيت وآخره ، فهو لا يجانس بين القافية وحشو البيت ، فإن هذا الجناس ربما كان لا يزال ممكناً ، إنما هو يجانس بين القافية وبين أول لفظة فى البيت كما نرى فى مثل قوله :

أتراكَ يوماً قائلا عن نيَّةٍ … خلصتْ لنفسكَ يالجوجُ تراكِ [1]

(١) تراك : اترك .

أدرَاكَ[١] دهرُك عن تُقاك بجهده فدراكِ من قبل الفواتِ دَراكِ
أبْراكَ[٢] ربُّك فوق ظهرِ مطيَّةٍ سارتْ لتبلغ ساعة الإبراكِ
أفراكَنٌ أنا للزمان بمُحْصَدٍ بانتْ عليه شواهدُ الإفراكِ[٣]
أشْرَاكَ[٤] ذنبُكَ والمهيمنُ غافرٌ ما كان من خطرٍ سوى الإشراكِ

فإنك تلاحظ فى هذه الأبيات أن المعرى عرف كيف يصعب طريقه إلى نظم هذه المقطوعة ، فقد ضيق الباب بل الابواب التى يمر منها إلى صناعة البيت ، وأبى إلا أن يظهر هذا التضييق فى أول كلمة يبدؤه بها ، إذ أقام هذا الجناس المتعب بينها وبين القافية .

لقد كان الشعراء من قبل المعرى يلتزمون رَوِيًّا واحداً فى شعرهم ، ولكنه رأى ذلك شيئاً سهلاً ، وهو يريد الصعوبة والتعقيد فاشترط على نفسه أن ينظم على رَوِيَّيْن ، وكأنه أحسّ بأن النظم لا يزال سهلا ، فذهب يبالغ فى الصورة التى يمكنه أن يعقده فيها ، وما زال يبالغ حتى انتهى إلى هذه الصورة من الجناس بين أول البيت وآخره . والغريب أنه لم يكن يصنع ذلك فى بيت واحد أو أبيات متفرقة من مقطوعاته التى يطلبه فيها ، بل نراه يعممه فى جميع أبياتها . وكان إذا جنح إليه فى مقطوعة طوّلها وتجاوز بها المعتاد حتى يثبت مقدرته ومهارته فى صنع هذا « الجناس اللغوى » الذى ما يزال يعقد فيه حتى يخرج على هذا النحو المركب ، فهو يلتزمه فى أول البيت وفى آخره ، وهو يسرف على نفسه فيلتزمه فى المقطوعات الطويلة أحياناً . وحقًّا أن المعرى أسرف على نفسه إسرافاً شديداً حين جنح إلى هذا النوع من الجناس ، ولكن كيف يثبت مقدرته على التعقيد فى الشعر إن لم ينزلق إلى هذه الممرّات الصعبة يجعلها طريقه إلى شعره

(١) دراك : رفعك ، أصله درأك .

(٢) أبراك من البرة وهى حلقة تجعل فى أنف البعير ليزم بها . يقول جعل الله لك عقلا يمنعك من الشهوات كما تمنع الناقة من البرة . والمطية يقصد بها الليل والنهار .

(٣) المحصد : الزرع يحصد . الإفراك : الاشتداد . يقول أتركن وزرعك قد اشتد وأفرك .

(٤) أشراك : من الشرى ، وهو مرض يصيب الجلد فيتعقد .

وصناعته ، فقد أصبح الفن صعوبة وتعقيداً خالصين ، وأصبحت مهارة الشاعر أن يصيب فى شعره حظاً من هذه الصعوبة أو ذلك التعقيد ، فإذا المعرى يلتمس هذا الجناس الغريب . وأكبر الظن أن خير وصف يمكن أن يضاف إليه أنه « جناس لغوى » ، فقد تحول الجناس عند المعرى عن وجهته الأولى ، وأنه بديع مستطرف ، إلى وجهة لغوية يريد بها الشاعر أن يثبت مقدرته اللغوية فى استخدام الغريب من الألفاظ ، واقرأْ هذا البيت :

ذَوَى كالرَّوضِ روضُك يومشُبِّتْ جمـــارٌ من لَظَى أسَفٍ ذَوَاكِ

فقد استطاع أبو العلاء أن يلفق جناساً أشد صعوبة من ضروب الجناس السابقة ، إذ ألفه من كلمة وحرف فى كلمة أخرى ، وكأنه يريد أن يخطو بالشعر خطوة جديدة فى سبيل التعقيد ، فإذا هو يجانس بين القافية وبين ذوى الأولى وحرف الكاف التالى لها ، أرأيت كيف أصبح الجناس عند أبى العلاء عبثاً لغوياً لا يراد به شيء أكثر من التصعيب والتعقيد ؟ وهل هناك شيء أطرف فى رأى أبى العلاء ومعاصريه من أن يستخرج أحدهم عقدة جديدة فى الشعر ؟ بل إنه ليلتزم عقداً كثيرة ، فإذا هو يقيد نفسه فى قوافيه ، وإذا هو يرجع إلى ثقافته اللغوية يستمد منها ألفاظه الغريبة التى يستخرج منها هذا الجناس المعقد بين القافية وحشو البيت ، وكأنى به يرى ذلك ممكناً فيجانس بين القافية وأول البيت ، ثم يرى أن ذلك لا يزال ممكناً أيضاً ، فيفكر طويلاً حتى يقع على هذا الجناس بين القافية والكلمة الأولى فى البيت وما يجاورها من حرف أو حرفين .

وليس من شك فى أن ذلك كله كان مباعدة لأسلوب الوعظ ، وكأنى باللزوميات إنما جاءت لتُحدِث هذه الصعوبات والتعقيدات فى الشعر وما يُطْوَى فيها من شُعَبٍ ومنعطفات ؛ أما الوعظ وأما الزهد . فقد كانا يأتيان تابعين لهذا العمل المعقد تعقيداً شديداً ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن اللزوميات بُنِيت بناية لغة قبل أن تبنى بناية زهد ، وهل كان المعرى يطلب بلوازمه فى قوافيه أو فى ألفاظه أن يؤدى حاجة من وعظ ؟ لقد كان يؤدى بهذه اللوازم حاجة لغوية ، فالثقافة اللغوية أهم شيء فكر فيه فى أثناء عمل لزومياته .

٧

اللوازم العارضة فى اللزوميات

هذه اللوازم الدائمة فى اللزوميات كانت ترافقها لوازم عارضة تظهر من حين إلى حين ، ونقصد بهذه اللوازم العارضة ما كان يَجْنَحُ إليه أبو العلاء من تصنعه لألفاظ الثقافات المختلفة من عروض ونحو وفقه ، ولعله أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون ، ومن قبله كان المتنبى يتصنع لذلك ، ولكنه لم يسرف فيه إسراف المعرى الذى ذهب يطرِّز شعره بألفاظ العلوم والفنون ، بل إننا لنراه يُدْخل مسائلها فى آرائه ، وكأنه يريد منها الحجة والدليل على ما يذهب إليه من فكرة أو رأى ، وانظرْ إليه يستخدم العروض فى التدليل على أفكاره فيقول :

إذا ابنا أبٍ واحدٍ أُلْفِيَا ... جوَاداً وعَيْراً فلا تعجَبِ(١)
فإنَّ الطويل نَجيبُ القريضِ ... أخــوهُ المديدُ ولم يُنْجِبِ(٢)

فإنك تراه يصف أحوال الناس بأوصاف الطويل والمديد ويتصورهم على هذا النحو من التصور العروضى ، فالنجيب طويل وغير النجيب مديد ، أرأيت إلى هذا التجديد ؟ لقد جمد الشعر العربى ولم يبق فيه إلا هذه الانحرافات التى يأتى بها الشعراء من أوعية الثقافة ، فإذا أبو العلاء يقول :

بَقائى الطَّويلُ وغَيِّى البَسيطُ ... وأصبحتُ مضطربـًا كالرَّجَزْ

أرأيت إلى حياة أبى العلاء كيف تتحول إلى أوزان العروض ؟ . ولم يكن أبو العلاء يلجأ إلى ذلك ليقرر فكرة الفيثاغوريين عن الكون وائتلافه الموسيقى ، إنما هو يلجأ إليه ليثبت معرفته بالعروض ومصطلحاته ، وكأنه المرآة المستقيمة التى يستطيع الفيلسوف أن يرى فيها أحوال الناس مقيسة مقدرة على خير ما يكون القياس والتقدير ، ولست أشك فى أن أبا العلاء كان يعجب إعجاباً شديداً بهذه الآلة الحديثة التى عثر عليها والتى يقيس بها أحوال الناس والحياة ، ويظن

---

(١) العير : الحمار.

(٢) يقصد بالنجابة هنا كثرة الاستعمال .

أنها تفسِّرها ! ، وأكبر الظن أنه كان يعرف عَجزها وأنها لا تستطيع ذلك ، ولكنه يلجأ إليها ليحرز انتصاراً جديداً فى تعقيد الفن وتصعيبه .

وليست اصطلاحات العروض فقط هى التى يمكن أن تفسر مشاكل الحياة ، بل تَشْركها اصطلاحات أخرى من النحو والصرف ، وانظر كيف يفسِّر الصلة بين الأصول والفروع تفسيراً صرفيًّا فيقول :

وفى الأصل غِشٌّ والفُروعُ توابعٌ ... وكيف وَفاءُ النَّجْل والأبُ غادرُ
إذا اعتلَّت الأفعالُ جاءتْ عَليلةً ... كحالاتِها أسماؤُها والمصادرُ

فالأصول والفروع وما بينهما من وراثات ، كل ذلك نستطيع أن نجد له تفسيراً لا فى الفلسفة ، بل فى الصرف ، فالأفعال إذا كانت عليلة تبعتها مشتقاتها لا تستطيع حِوَلاً عنها ولا خلاصاً منها ، وعلى هذا النحو تتبع الفروع الأصول ، إن كانت سَليمة سلمتْ ، وإن كانت معتلة اعتلت ، أرأيت إلى الصرف كيف يمكن أن نستخرج منه تفسيراً وتصويراً لمشاكلنا ؟ إنه أحد المفاتيح الصغيرة التى عثر عليها أبو العلاء وجاء يستخرج منها وصف أحوالنا ، وليس الصرف فقط هو الذى نجد فيه هذه المفاتيح ، بل إننا نجدها كما رأينا فى العروض ، ونجدها أيضاً فى النحو ، وانظرْ إليه إذ يقول :

سِرٌّ سيُعلَنُ والحياةُ مُعارَةٌ ... ولتُقْضَيِنَّ بها ديونُ المعْسِرِ
كخبيءِ نعمَ وبئسَ يُخْبأ فيهما ... ويكونُ ذاكَ على اشْتراطِ مفسِّرِ

أرأيت إلى حقائقنا ؟ إننا لا نتشابه فيها فقط ، بل إننا نتشابه فيها مع مسائل النحو والعروض والصرف ، وليس من شك فى أن هذا الصنيع لا يضيف طرافة للشعر إلا عند أصحاب هذه الفنون ، وهل حقًّا يمكن أن تفسِّر هذه الفنون ومصطلحاتها مشاكلنا ؟ إنها مملوءة بكثير من المشاكل التى تحتاج هى الأخرى إلى ما يفسرها ! .

ومهما يكن فإن أبا العلاء غلا غلوًّا شديداً حين جعل هذه المعارف لوازم فى شعره وإن تكن لوازم عارضة تأتى من حين إلى حين . قد نفهم أن يبالغ

فى التشديد على نفسه فيصطنع منهجاً جديداً فى قوافيه يعقد به موسيقاه ، ولكن لا نستطيع أن نفهم هذا التصنع لاصطلاحات النحو والصرف والعروض ، وكان يلحُّ فى طلبه إلحاحاً شديداً . أليس يدل ذلك على أن التفكير الفنى لم يعد يدخل فيه شىء طريف وأن الشعراء قد أحسوا إحساساً ما بإجدابهم ، فانطلقوا يتكلفون فى شعرهم هذه الكلف التى لا تفصح عن جمال فنى سوى هذا التعقيد الذى يَدْخله الشعراء من ممرات وأبواب كثيرة ، تارة من ممرات موسيقية معقدة وتارة من أبواب بديعية ملفقة ، وأخيراً من هذه المسالك العلمية التى لا تضيف طرافة إلى الشعر أكثر من ذكر بعض الألفاظ وبعض المسائل والمصطلحات ، ومع ذلك فقد كانت هذه المسالك تُعَدُّ بدعاً طريفاً فى القرن الرابع وما تلاه من قرون ، وأخذ أبو العلاء يوسِّع استخدامها ، فهو لا يقتصر بها على ما مضى من فنون ، بل هو يطلبها أيضاً فى الفقه والدراسات الدينية ، فإذا هو يقول :

حيرانُ أنتَ فأىُّ الناس تتَّبعُ ... تجرى الحظوظُ وكلٌّ جاهلٌ طَبَعُ[1]

والأمُّ بالسُّدْسِ عادتْ وهْى أرأفُ من ... بنتٍ لها النصفُ أو عرْسٍ لها الرُّبُعُ

فإنك تراه يخلط مسائل الدين الخاصة بتشاؤمه وما يرى فى الحياة من مشاكل تؤديه إلى الشك والحيرة . وعلى هذا النمط ما يزال أبو العلاء يتعرَّضُ فى اللزوميات لمسائل العلوم والفنون المختلفة يتخذ منها الحجج والأدلة على ما يزعمه من أفكار وآراء ، وإنه ليكثر من ذلك كثرة مفرطة ، حتى ليحس من يقرأ فى لزومياته بأنه يقرأ فى كتاب ثقافة لا فى ديوان شعر . ولقد كان حريًّا به أن ينحّى عن شعره هذه القيود الثقافية العارضة ، ويكتفى بقيوده الدائمة السابقة ، ولكنه يريد أن يصعب عمله وأن يسلك إليه أضيق الممرات والأبواب ، فإذا هو يلتزم ما لا يلزم مراراً ، مرة فى حروف قوافيه وحركاتها ، ومرة فى ألفاظه الغريبة ، ومرة فى جناساته المعقدة ، وأخيراً فى هذه اللوازم العارضة ، حتى ليصبح الشعر لوازم خالصة .

---

(١) الطبع : اللئيم .

وعبث أن نبحث بعد ذلك عن جديد فى الشعر ، فقد اندفع الشعراء بعد أبى العلاء فى هذه الممرات الضيقة ، كما نجد عند الحريرى وعند غيره من الشعراء ممن وقف عندهم صاحب معاهد التنصيص يروى لهم مقطوعات تُقْرَأ طرداً وعكساً ، أو يلتزم الشاعر فيها الحروف المهملة أو الحروف المعجمة إلى غير ذلك من عبث لا يفيد الشعر شيئاً[1] وكأنى بالشعر العربى ارتفع به العباسيون إلى القمة ثم أخذ يسقط رويداً رويداً ، فإذا هو قصائد تلفق تلفيقاً ، وقلما احتوت جمالاً من زخرف أو فكر . وحتى ألوان التصنيع القديمة أصابها ما أصاب لون الجناس عند المعرى ، إذ تحولت إلى صور هندسية ، قلما يجد الإنسان فيها طرافة إلا تعقيداً يقضى على كل ما يبعثه الشعر من لذة شعرية أو متعة فنية .

---

(١) معاهد التنصيص ٢/١٠٢ وما بعدها .